٢- " **الأسرة والمدرسة وتربية الأخلاق**". محمد زياد حمدان. أستاذ المناهج والتدريس، وعلم النفس التربوي.

إن الإنسان بدون أخلاق هو بالنتيجة بدون قيم. والإنسان بدون قيم.. يفقد كل شيء في هويته بدءاً من حسن التقويم الذي خلقه الله به وحسن المعرفة التي تقرّر نوع إدراكه، وانتهاء بحسن التصرف الذي يوجه سلوكه مع الآخرين ومداخلاته اليومية في الاجتماعات المدنية للناس. وهو بهذا يتحول إلى كيان ممسوخ دون دور بناء في أداء أي شيء لنفسه وأسرته وعمله ومجتمعه. وقبل عقود طويلة، قال الشاعر الكبير أحمد شوق :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال أرسطو قبل أكثر من ألفين وثلاثمائة سنة، بأننا: (نصبح عادلين بممارسة العدل في تصرفاتنا ومنضبطين ذاتياً بممارسة الانضباط الذاتي، وشجعانًا بإنجاز أفعال شجاعة)!

فالأخلاق والقيم هي جوهر شخصية الإنسان (أسرة وأبناء)، وهي الآلية الحقيقية الموجّهة للتفكير والسلوك ومواقف الحياة. انها بدون شك الشغل الشاغل لدى الإنسان والأسر والمجتمعات عبر عصور التاريخ من آدم وحواء وحتى الوقت الحاضر.

والأبناء بشخصياتهم وسلوكياتهم وأخلاقهم، كما يبدون في مختلف مراحل نموهم من الطفولة والمراهقة فسن الرشد والنضج.. هم نتاج لتربية الأسرة والمدرسة، وانعكاس مباشر لأحوالهما: سلباً أو إيجاباً.

ولا نعني هنا أن الأبناء الفاسدين هم دائماً نتاجً لأسرة او مدرسة فاسدتين بدون أخلاق (لأن الله قد يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي...أي يخرج الصالح من الطالح ويخرج الطالح من الصالح)، بل أن الأسرة والمدرسة بإهمالهما للناشئة الأبناء، وانشغالهما الزائد عنهم في أمور لها ما يبررها حيناً، وما لا يبررها أحياناً عديدة أخرى نتيجة سوء المداخلات والتخطيط والتنفيذ.. تساهمان مباشرة مثل الأسرة الفاسدة والمدرسة المتسّيبة، في إنتاج ناشئة أبناء سيئين أو بدون أخلاق.

وليس المقصود بتربية الأسرة والمدرسة للناشئة الأبناء في القرن الواحد والعشرين هو تنميتهم معاصرين في كل شيء يعتقد به أو / ويمارسه العالم الخارجي الآن.. أو مُتحررين تماماً من الماضي وقيم الآباء والانجازات الحضارية للأجداد. كما أن تكوين هوّيات الأبناء الخلقية لا يعني تخليد هذا الماضي بإيجابياته وسلبياته وتحويل الأبناء إلى كيانات آلية لتطبيق أخلاقياته وقيمه حرفياً: بدون تعديل أو تحديث أو مواءمة، بل حصول الأسرة والمدرسة بالتربية، على أبناء مؤهلين ثقافياً ومنفتحين متفاعلين حضارياً مع العالم الذي يعيشونه آنياً... أي أبناء بهوّيات شخصية مستنيرة واعية الادراك، وأقوياء بتحمل المسؤولية، وقويمين سلوكياً بحسن الخلق.

كوارث الأخلاق المعاصرة نتيجة أسر ومدارس لا تربي

إن الحروب والفتن المشتعلة محلياً وعالمياً، والنزاعات الأسرية، والنسب المرتفعة لحوادث الطلاق، وانتشار المخدرات في المدارس وأحياء المدن، وصعوبات التعلم، واضطرابات الشخصية والنفسية ألتي يعاني منها العديد من الأبناء، والانحرافات السلوكية التي لا تحصى لدى الشباب، وعناد الأبناء ومعارضتهم لدستور الأسرة وَتمرّدهم على سلطاتها اليومية، والتسرّب المتكرر للأبناء من الحياة الأسرية والمدرسية، وضعف تحصيلهم المدرسي، والفساد الرسمي وغير الرسمي، وفقدان الأمن في مختلف مناحي حياة الفرد والأسرة والمؤسسة والعمل والمدرسة والطريق العام والسوق أو الأماكن العامة وغيرها.. هي كلها مؤشرات مباشرة لضعف تربية الأسرة والمدرسة، أو لعدم تربيتهما أو لخطأ تربيتهما أحياناً.

لقد أوردت أدبيات التربية في الولايات المتحدة الأمريكية أمثلة عديدة على سوء الخلق الذي يسود سلوك الشباب هذه الأيام، منها أن : مجموعة من الشباب (الأولاد والبنات) الأمريكيين قاموا بتعليق أربع قطط من ذيولها بغصن شجرة، ثم اضرموا النار ببساطة في هذه المخلوقات الضعيفة؟ وعندما سأل البوليس عن أسباب فعلتهم الغريبة، قالوا بدون إبطاء أو تردّد : أنهم لم يجدوا شيئاً آخر يفعلونه !؟

وفي مثال آخر، قام شاب يافع بعمر ١٥ سنة باستدراج قريب له في منطقة شجرية مجاورة ثم باشر في ضربه حتى الموت بأداة رياضية صلبة. وفي حديث مع أصدقائه بعدئذ أفاد بأنه أراد أن يرى كيف يشعر عندما يرتكب جريمة!

تؤكد إحصائيات عامة لدراسة الجريمة في الولايات المتحدة فظاعة هذه التصرفات الإجرامية لهؤلاء المراهقين في البيانات التالية:

١- معدل ارتكاب حوادث الإجرام لدى الشباب بين عمر ١٥-٢٤ سنة هو ٧٠٠ % عما هو في كندا المجاورة، و٤٠٠ % عما هو في اليابان على الطرف المقابل للمحيط.

٢- نسبة ٧٨ % من الشباب الذين أجريت عليهم دراسة بعينة كبيرة، أفادوا ارتكابهم للغش في المدرسة حتى مما أُعتبر متفوقاً منهم بتقدير جيد جداً أو أعلى.

٣- نسبة ٦٠% من تلاميذ المدرسة الثانوية (الإعدادية والثانوية في البلدان العربية) أفادوا تناولهم للمخدرات، ناهيك عن تناول الكحول.

٤- الشباب الحاليون بعمر ١٨ -٣٠ سنة هم أقل معرفة، وأدنى ثقافة حيث العناية والاهتمام بالأخبار والشؤون العامة للمجتمع، من الأجيال في الخمسين سنة السابقة.

٥- نسبة ٥٠% من تلاميذ الصف التاسع في إحدى المناطق الأمريكية الغنية أفادوا بأنهم لا يعتبروا سرقة قرص ليزري صلب CD أو الاحتفاظ بالنقود من محفظة مفقودة أنهما سلوكاً خاطئاً.

٦- عنف الشباب هو في تصاعد مستمر.

٧- سلوكيات عدم الأمانة بالكذب، والفشل والسرقة والخداع هي في تصاعد مستمر.

٨- عدم احترام الوالدين والأسرة، والمعلمين، ورموز السلطة الشرعية الأخرى في المجتمع هي في تفاقم متواصل.

٩- التصرفات الفظة أو الخشنة للأقران في المدارس هي في ازدياد أيضاً.

١٠- التمييز والتحيّز وجرائم الكراهية هي متفاحلة باستمرار.

obeikandl.com

١١- الأخطاء اللغوية وضعف التعبير أصبحت منتشرة بوضوح بين الصغار والكبار على السواء.

١٢- انحطاط الأخلاق وتصرفات التحرش الجنسي خلال العمل تبدو متفاقمةً يوماً بعد يوم.

١٣- فقدان الشعور بالمسؤولية يلاحظ على نطاق واسع.

١٤- أمية الأخلاق بدءاً بجهل المعارف والميول وانتهاء بجهل التصرفات أصبحت منتشرة بوجه عام.

١٥- عمليات الإجهاض (إسقاط الحمل) نتيجة ممارسة الشباب للجنس قبل الزواج هي الأعلى في الولايات المتحدة الأمريكية بالمقارنة مع أقطار العالم المتقدم (مادياً) الأخرى.

إن الحقائق والإحصاءات أعلاه تخص واحداً من أكثر المجتمعات الغربية تقدماً تقنياً ومادياً، فكيف الأمر في البلدان النامية التي تعاني من مشاكل جمّة سياسية وأمنية واقتصادية وإدارية؟! إن المؤشرات الملفوظة والصامتة لارتكاب المعارف والميول والتصرفات غير الخلقية هي متفاقمة لا تحصى أحياناً. أما نتائج كوارث الخلق لدى الأفراد والأسر والجماعات والمؤسسات بمختلف أنواعها ومستوياتها، فتبعث على الغضب والأسى والتشاؤم على الصعيدين الرسمي والشعبي في آن. فبعض السلطات تتصرف مع مجتمعاتها بالعنف والإرهاب والتعذيب والظلم والقتل بوسائل وكثافة تفوق ما قام به نيرون في إحراق روما القديمة والمغول القدامى والجدد المعاصرين عند غزوهم عاصمة العباسيين بغداد، وهتلر في ألمانيا الحديثة ؟!

أما الأفراد والجماعات لدى هذه السلطات : فقد لوحظ اندفاعها السلوكي المجنون للثأر (بعدم العفو والتسامح) عن طريق ارتكاب كافة أنواع وصيغ الانحراف الخلقي المعروفة والمبتكرة الجديدة.. بدءاً بالسلب والنهب والقتل وانتهاء بتخريب وحرق ونهب المؤسسات العامة مثل: مقرات الوزارات، والأخرى الاستثنائية الأساسية لحياة الأفراد مثل المشافي والبنوك ودوائر الخدمة العامة،

obeikandi.com

والمتاحف،، والثالثة الحاسمة لنمو وتقدم ومكانة الناشئة والمجتمع مثل: المدارس والجامعات والمكتبات ومراكز البحث العلمي ومواقع التاريخ الحضاري؟!

فالأسرة والأبناء والجماعات، بينما يعيشون ظلماً غير خلقي من الأغيار في الخارج، يعانون أيضاً ظلماً غير خلقي أقسى أحياناً في الداخل. وهم بهذا يعيشون في دوائر سلوكية مفرغة ومتصلة من كوارث الفعل و رد الفعل غير الخلقية المدمرة التي لا تسلبهم فقط كراماتهم الإنسانية وتركيزهم الإدراكي على تحسين الحاضر والمستقبل، بل تحرف تصرفاتهم في الكفاح من أجل البقاء بخيارات وممارسات غير خلقية أو في التغلب على الظلم والخطأ بسلوكيات ظالمة أو خاطئة أخرى.

ولا سبيل إلى كسر هذه الدوائر المفرغة من سوء الخلق والتصرف، إلا بمبادرة الأسرة أولاً ثم المدرسة ثانياً في تربية الأبناء على أسس ومبادئ خلقية بالإضافة إلى تعليمها التقليدي للمعارف والمهارات الأكاديمية التحصيلية.

فبدون هذه التربية الخلقية، تفقد التربية الأكاديمية أهدافها ورشد عملياتها ونتائجها السلوكية، بل تحرف بعض الأبناء عند الرشد في المستقبل (حتى من حَمَلَة الدكتوراه للأسف الملاحظ) بتوظيف معارفهم الأكاديمية المتقدمة في ارتكاب انحرافات خلقية، وفي الإبداع في تصرفات سيئة مثل المناورة والخداع والنفاق والكذب والافتراء واللهث المحموم وراء منافع شخصية لا يستحقوها غالباً، دون الانشغال في التربية القويمة وتنمية الإنسان وتقدم المجتمع كما هو مفروض!؟.

إن المشكلة الأكبر التي تواجه مجتمعاتنا و أسرنا و مدارسنا هي خلقية بالدرجة الأولى.. فالأخلاق القويمة والهوية الخلقية هي أكثر ما تحتاجه أسرنا وأبناؤنا هذه الأيام، لنتمكن حضارياً من النهضة مجدداً.. و الخروج من كبوتنا الممتدة عبر أكثر من ألف سنة حتى الآن ؟!.

لقد أكدّ الفيلسوف اليوناني هيرقليتس منذ أكثر من ألفين وثلاثمائة سنة على أن: الخلق هو المصير! وإن كل ما نتمناه بأن لا تكون الأزمات التي تعانيها البلدان النامية على مختلف الصُعُد والمستويات، ناجمة عن سوء الخلق؟!